ابن بطوطة
ومنهجه فى مشاهداته

دكتور محمد نيسان سليمان
أستاذ مساعد جامعة الأزهر

العلوم الاسلامية تتناول الدين والدنيا معا ، ولا يقتصر مفهوم العلم فى الاسلام على الجانب الدينى فقه ، بل يشمل جانبه الدنيوى كذلك ، والاسلام دين حضارة ، فلا غرو أن يدعو الى التعمق فى شتى العلوم والفنون ، وأن يفتح النوافذ ، ويفسح المجال للأخذ من كل علم بطرف ، ومن ثم استندت الحضارة الاسلامية الى دعائم علوم الدين والدنيا معا ، ولا تفضيل لعالم على آخر بنوع ما يحصله من علم ، وانما باخلاصه فيه ، واستخدامه فى سبيل خير الناس ورخائهم ، وذلك أن العلم فى الاسلام سبيل لخدمة الدين والمجتمع البشرى عامة ، وعلم الرحلة واحد من هذه العلوم التى قدمت للانسان سبل الراحة ، وأطلعته على كثير من أخبار الدول وعادات وتقاليد الشعوب ، وأود أن أسجل هنا ، أنه بالرغم من وجود علماء من الرحل العرب المسلمين ، الذين أثروا ثقافتنا العربية بما قدموه لنا من رحلات اشتملت على معلومات سياسية واجتماعية وكشفية قبل ابن بطوطة،مثل الاصطخرى والمسعودى وابن حوقل والأدريسى والصعيدى والياقوى وابن جبير وغيرهم فان ابن بطوطه ينفرد عن هؤلاء جميعا ، بما قدمه فى رحلته التى استمرت ما يقرب من ثمان وعشرين عاما ، وقد اهتم العلماء والكتاب فى العصر الحديث برحلة ابن بطوطة ، وفردوا لها كتبا قيمة اختلفت عناوينها

ومضمونها ومنهم الأستاذ أحمد عطية الله « رحلة ابن بطوطة الى بلاد الهند » وتناول ذلك الأستاذ بلاد الهند فى رحلة ابن بطوطة وقدم معلومات طيبة مفيده ، وكذلك الأستاذين أحمد العوامرى ، محمد أحد جاد المولى .. مهذب رحلة ابن بطوطة ، وفى هذا الكتاب معلومات هادفة ومفيدة للباحثين وقد استدرجا على ابن بطوطة كثيرا من الأخطاء التى وقع فيها خاصة فى بلاد الصين ، ومن الذين كتبوا عن رحلة ابن بطوطة الأستاذ جورج غريب « أدب الرحلة تاريخه وأعلامه » وهذا الكتاب مفيد للمشتغلين بفن الأدب ، والأستاذ شاكر خصيناك ألف كتابا « ابن بطوطة ورحلته » ويعتبر الأستاذ شاكر من الذين أنصفوا ابن بطوطة ودافع عنه عندما تناوله بعض المؤلفين بالقدح والذم .

والأستاذ محمود الشرقاوى ألف كتابا « رحلة ابن بطوطة من طنجة الى الصعيد والأندلس وأفريقيا » وقد علق الشرقاوى على رحلة ابن بطوطة تعليقا مفيدا ، ومن الذين اهتموا برحلة ابن بطوطة الأستاذ زكى محمد حسن « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » وقد أفرد له صفحات فى كتابه ، وكذلك الأستاذ الدكتور أحمد رمضان أحمد « الرحلة والرحالة المسلمون » وقد تناول ابن بطوطة بالشرح والتحليل لرحلته فى نهاية كتابه ، ومنهم أيضا الأستاذ نيقولا زيادة « الجغرافية والرحلات عند العرب » وقد تحدث عن ابن بطوطة بصورة طيبة هذا بالاضافة الى البحوث التى جاءت فى المجلات ومنها الأستاذ عبد الله كنون ، كتب بحثا بعنوان « ابن بطوطة » تناول فيه وصف للرحلة مع تعريف بصاحبها دون تعليق عليها (١) ، وكذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان كتب بحثا بعنوان « ابن بطوطة الطنجى أعظم الرحل فى العصور الوسطى » (٢) وقد قال عنه « يجب أن يعتبر ابن بطوطة أعظم الرحل

---

(١) مجلة العربى العدد ١٤٦ ذى القعدة ١٣٩٠هـ ص ١٦٣ .

(٢) مجلة العربى العدد ٢٧٠ جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ ص ١٠٦

قاطبة فى العصور الوسطى ، ولكن البحث وصف للرحلة مع اختلاف فى الأسلوب والمنهج •

ومن الذين تناولوا ابن بطوطة الأستاذ الدكتور سعيد عاشـــور وعنوان بحثه « رحلة ابن بطوطة فى عالم المرأة » (٣) •

وقال عنه : الواقع أننا فى دراستنا للتاريخ ، وخصوصا فى جانبه الاجتماعى • نجد فى كتب الرحلات نوعا من المادة العلمية،لا نجد نظيرها فى مدونات التاريخ المألوفة من حوليات وطبقات وتراجم وغيرها ، أمـــا الرحالة فيعنى بكل ما يصادفه من طبائع البشر وغرائب البلدان ويدخل فى نطاق رصده الأحوال المعيشية للأفراد والجماعات ، مما يفسر عن رؤية اجتماعية صادقة » وبحق فهو بحث جيد ، كشف عن رؤية جديدة لكتب الرحلات ومن الذين اهتموا برحلة ابن بطوطة الأستاذ الدكتور حسين مؤنس وعنوان بحثه « ابن بطوطة رحالة الاسلام » وقد اشتمل هذا البحث على حلقات ثلاث جاءت فى مجلة العربى (٤) وقد قال عنه : ان ابن بطوطه اسم نذكره ، كلما كان الحديث عن الرحلات والسفر ، هذا الرحالة العربى المسلم الذى طاف بالعالم الواسع من حولنا ، ونقل لنا صور احياة الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، هذا المسافر الذى لم يحط رحله أبدا ، زهاء ربع قرن من الزمان أو يزيد ، وللامانة العلمية فهو بحث جيد استفدت منه •

هذا بالاضافة الى أن هناك عددا من الباحثين تناولوا ابن بطوطة ورحلته فى كل فنه •

---

(٣) مجلة العربى العدد ٣٢٠ فى شوال سنة ١٤٠٥ ص ٧٠ •
(٤) مجلة العربى العدد ٢١٣ ، شعبان ١٣٩٦هـ ص ٢٨ •
مجلة العربى العدد ٢١٤ رمضان ١٣٩٦هـ ص ٩٦ •
مجلة العربى العدد ٢١٥ شوال ١٣٩٦هـ ص ٥٦ •

ولكن لم يكتب بحث عن منهج ابن بطوطة على الرغم مما كتب عنه سواء فى مؤلفات مستقلة أو بحوث جاءت فى مجلات علمية وغيرها • ولعل ذلك هو الذى دفعنى أن أكتب هذا البحث •

الرحلة فى اللغة : والرحلة فى مفهوم اللغة من الفعل رحل : يرحل رحيلا وترحالا بمعنى ذهب والاسم منها الرحل والرحالة وقوم رحل أى يرتحلون كثيرا ، ومنها الراحلة الناقة الصالحة لأن تركب ومنها الرحلى وهو مركب يوضع على ظهر الابل ومنها الرحل وهو ما يأخذه المسافر من الأوعية اللازمة له ، ومنها الرحلة أى الجهة التى يقصدها المسافر ، فيقال مثلا : مكة رحلتنا (٥) •

أسباب الرحلة :

ومن العوامل التى ساعدت على الرحلة فى فجر الاسلام هو جمع الحديث من أفواه الرواة ، فيحدثنا ابن سعد فى طبقاته فيقول : ان الحديث فى النصف الثانى من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى لم يكن يؤخذ بالسماع والقراءة فحسب ، بل استخدمت الى جانب ذلك طريقتان أخريان هما المكاتبة والمناولة (٦) هذا بالاضافة الى القصص التى رويت عن المحدثين الذين قاموا برحلات شاقة فى سبيل جمع الأحاديث المحفوظة فى صدور الرواة المتفرقين فى الأمصار الاسلامية ليدونوها لأول مرة وطبيعى أن تكون الرحلة من أهم الوسائل لطلب العلم فى أوائل العصر الاسلامى ، فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام المراجع والمؤلفات فى الوقت الراهن •

---

(٥) راجع لسان العرب لابن منظور جـ ١١ ص ٢٧٤ ، دائرة المعارف لفريد وجدى مادة رحل ص ٢٣٠ •

(٦) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٦٠ •

وفضلا عن ذلك ، فقد تعددت مراكز الثقافة فى ديار الاسلام فكان رجال العلم ينتقلون من اقليم الى آخر يدرسون على مشاهير العلماء ، ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ، وكذا الاجماع والفلاسفة والرياضيين ، وقد شهدت بغداد ، ودمشق ومصر كثيرا من الندوات العلمية التى وفد اليها العلماء من كل بلد ينهلون من العلوم الكم الوفير ، ثم يعودون الى بلادهم هذا بالاضافة الى حركة الترجمة التى ظهرت فى العصر الأموى فقد أدت الى نهضة علمية كبيرة فى مختلف فروع العلوم العقلية والنقلية .

ومن الأسباب التى ساعدت على الرحلة ، وصف الأقاليم والعناية بها ، التى اعتبرت جزءا من أخبار الفتوح والمغازى ومن ثم فقد كان أول ما دون فى التاريخ ، تاريخ المدن والأقاليم ، وهى التى ارتبطت بالفتوح والجغرافية .

ولعل من أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأنا عند المسلمين تأدية فريضة الحج الى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم ، وقد سجل النابهون من هؤلاء الحجاج مشاهداتهم وأحاسيسهم وكذا الطرق والمسالك التى مروا بها وسلكوها وما صادفهم فى رحلاتهم من غرائب الأحداث .

وليس من شك فى أن مدونات شاهد الرؤيا أصدق قيلا وأقوى تأثيرا ممن سمع أو قرأ ، أو استنبط ، وأن الحاج يجنى من رحلته الى الحجاز ، فضلا عن تأدية الفريضة ، فوائد جمة منها الالتقاء بمعظم علماء وفقهاء العالم الاسلامى ، ومنها المجاورة ثم التجارة ، التى يجنى من ورائها النفع والكسب المادى ، واذا كان طلب العلم والحج والتجارة هى العوامل التى دفعت المسلمين الى الرحلة ، فان هناك عاملا آخر دفع غير المسلمين فى العصر الحديث اليها ، وهى الكشوف الجغرافية ،

ثم الاستعمار الذى يحاول بشتى الطرق أن يضع حجر عثرة فى نشر الاسلام ، والسيطرة على موارد البلاد الاسلامية (٧) .

ولقد كان ابن بطوطة من العلماء الذين اهتموا بالرحلة لأسباب دينية علمية ، وهذا يرجع الى أن ابن بطوطة تربى تربية دينية ، كانت من العوامل الأساسية ، التى دفعته للقيام بهذه الرحلات العظيمة ، وجعلت فى مصاف الرحالة العظام ، بل جعلته أعظم الرحالة المسلمين قاطبة ، حيث أن الحج الى بيت الله الحرام ، دفع ذلك الشاب ، وهو فى سن مبكرة الى التفكير فى آداء فريضة الحج وهو فى عنفوان شبابه حيث لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره .

منهج ابن بطوطة فى مشاهداته

ابن بطوطة علم من أعلام الرحالة المسلمين ، استمرت رحلته أكثر من ربع قرن ، عاد الى بلاد المغرب ، فقصد مدينة فاس ، حيث التقى بالسلطان أبى عنان ، وبعد أن حصلت له مشاهدة السلطان قام برحلتين أحدهما الى بلاد الأندلس والأخرى الى بلاد السودان ثم عاد الى مدينة فاس بنهاية سنة ٧٥٤هـ (٨) . وبعد أن استقر ابن بطوطة فى بلاط السلطان استدعاه ولحق ببابه وأمره بتدوين رحلته (٩) وأمر السلطان أبو عنان كاتبه ابن جزى الكلبى بكتابة ما يمليه عليه ابن بطوطة مما علق ذاكرته من أسفاره ورحلاته ، قال ابن جزى : ونفذت الاشارة الكريمة ، بأن يملى علي ما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها

---

(٧) راجع : الرحلة والرحالة المسلمون . د. أحمد رمضان أحمد ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(٨) راجع رحلة ابن بطوطة ص ٦٠٧ .

(٩) راجع الاحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٣ ص ٢٧٤ ابن الخطيب .

الأخبار ، من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف باقتنائها(١٠) وقد اتفق كل من كتب عن ابن بطوط أنه كان يتمتع بذاكرة ممتازة ثم أشار فى رحلته ، أنه قد قيد كثيرا من رحلته ، الا أنه تعرض للسرقة من قبل كفار الهند ، فضاعت منه بعض الأوراق ، حيث قال : وأخذوا ثيابى والزودات التى كنت عندى مما أعطانيه الصالحون والأولياء ، ولم يتركوا لى سوى بعض ملابسى الخاصة(١١) .

١ ــ الأسلوب الذى كتبت به الرحلة :

ان رحلة ابن بطوطة ترجمت الى أكثر من لغة ، ثم نقلت الى العربية مرة أخرى ، ومن هنا لم نتمكن من الوصول الى الأسلوب اللغوى الذى روى به ابن بطوطة رحلته وابن جزى كاتب الرحلة يقول : ونقلت معنى كلام الشيخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد ، وأوردت ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار ويقول : وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجميتها على الناس (١٢) .

وهذا النص الذى ورد عن ابن جزى يحدد لنا دوره الذى كان واضحا تماما فى كتابة الرحلة كما زعم ، فهو لم يتدخل فى سياق الحديث الا بقدر محدود ، لا يضر بصلب الرحلة(١٢) .

٢ ــ استعانة ابن بطوطة بكتب الآخرين

ان ابن بطوطة استعان بكثير من آراء المؤرخين والرحالة العرب والعلماء الذين التقى بهم فى الأقاليم التى زارها .

---

(١٠) رحلة ابن بطوطة ص ١٢ .

(١١) راجع رحلة ابن بطوطة ص ١٣ .

(١٢) راجع ابن بطوطة رحالة الاسلام . د. حسن مؤنس مجلة العربى العدد ٢١٣ ص ٣٢ .

الى جانب اعتماده على الذاكرة القوية التى تمتع بها عن غيره من الرحالة المسلمين ، ويتضح ذلك من قول ابن جزى « على أنه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط ، وعند حديثه عن بلاد الحجاز والشام فقد استعان ابن بطوطة برحلة ابن جبير وكان يشير الى ذلك ، حيث قال : كل وصف وان طال ، فهو قاصر على محاسنها ولا أبدع مما قاله : أبو الحسين ابن جبير رحمة الله تعالى (١٣) « ومن المؤرخين الذين استعان بهم ابن بطوطة الأزرقى حيث قال: حكى ذلك الأزرقى عند وصفه للمسجد الحرام بمكة : والمسجد الحرام فى وسط البلد ، وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع » (١٤) .

وأرى أن ابن بطوطة فى منهجه هذا يستخدم الأسلوب العلمى حيث يسند الرأى الى صاحبه ، حتى لا يحاسب على رأى غيره ، وهذا منهج العلماء الأجلاء .

٣ ــ دقة ابن بطوطة فى مشاهداته

اهتم ابن بطوطة برصد الأحداث ونقلها بصورة دقيقة لكل اقليم زاره ، فيقول : وعادة أهل الصين اذا أراد جنك من جنوكهم السفر أو أن يصعد الى صاحب البحر وكتابه فيكتبون من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية ، وحينئذ يسمح لهم بالسفر ، فاذا عاد الجنك الى الصين ، صعدوا اليه أيضا وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس ، فاذا فقدوا أحدا ممن قيدوه ، طالبوا صاحب الجنك به ، فاذا ما أتى ببرهان

---

(١٣) راجع رحلة أمين بطوطة ص ٦٨ ، ٨٤ ، ٢٢١ .

(١٤) راجع أخبار مكة الأزرقى جـ ٢ ص ١٨٢ ، ورحلة ابن بطوطة ص ١٣٢ .

على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له والا أخذ فيه (١٥) .

ثم يصف ابن بطوطة راكب الصين بصورة جيدة ، تدل على أنه بالفعل شاهدها واستخدمها ، حيث يقول : وعلى جوانب تلك الخشب مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على أقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظهور(١٦).

وفى رحلتى بلاد الهند والصين دارت الشكوك حول مشاهدة ابن بطوطة ، وكان أول المشككين المؤرخ ابن خلدون (١٧) ، ولكن الأستاذ الشرقاوى رد على من رمى ابن بطوطة بالكذب والذم ، فقال ان مناهضى ابن بطوطه وكارهيه والحاقدين عليه ، قد زاد كرههم له وحقدهم عليه ، وتأججت نار الغيرة فى نفوسهم من تلك المكانة التى نالها عند السلطان أبى عنان وهذه المكانة كفيلة بأن تجعل أصحابها يثيرون حول ابن بطوطة وأحاديثه كثير من الشكوك ، وربما أن تكون أسباب هذه الشكوك التى أثارها خصومه ، تعود الى أحاديثه الغريبة وأنبائه العجيبة عن بلاد الهند والصين وغيرها(١٨) .

ويقول عنه د . حسين مؤنس .. هناك قرائن تؤيد صحة ما يقول وهناك دلائل تقول انه لم يذهب الى بلاد الصين ... ولنذكر أنه كان يصف ما يرى على قدر ما يرى (١٩) ، ومما يؤكد دقة مشاهدة ابن

---

(١٥) راجع رحلة ابن بطوطة ص ٥٦٤ .

(١٦) نفس المرجع ص ٥٦٥ .

(١٧) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢٢ ، ٢٣ .

(١٨) راجع رحلة ابن بطوطة من طنجة الى الصين : الشرقاوى ص ١٤ ، ١٧ .

(١٩) راجع مجلة العربى العدد ٢١٥ ص ٦١ د. حسين مؤنس .

بطوطة ولو بالقدر اليسير فى رحلته ، مشاهدته للمسجد الحرام بمكة فاننا لم لحظ عليه خيالا ولا كذبا فى وصفه للمسجد الحرام ، وهو مكان رحل اليه كثير من الرحالة المسلمين فلو أنه يميل الى الخيال أو الاطناب فى القول لوجدنا ذلك . ان التربية الدينية التى تربى عليها ابن بطوطة تجعلنا نقف منه موقفا يبعد عنه الشك خاصة أنه اجتهد وقدم لتراثنا العربى سجلا حافلا من علوم الجغرافيا والتاريخ ودراسة شاملة لمختلف فروع المعرفة .

الجوانب الدينية فى حياة ابن بطوطة

ان ابن بطوطة أسرع الى تأدية فريضة الحج وهو فى عنفوان شبابه ، فان ذلك من الأدلة الواضحة على قوة الوازع الدينى لدى ابن بطوطة ، اذ قال : فى ذلك كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب المفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم ، منفردا عن رفيق أنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق الى تلك المعاهد الشريفة ، كامن فى الحيازم فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الاناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور (٢٠) ولم يكتف ابن بطوطة بحجة واحدة فقط ، بل زار مكة كثيرا ، وحج ست حجات فى أعوام ٧٢٦ هـ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٢ ، وأخيرا فى سنة ٧٤٩ هـ ، وان دل ذلك فانما يدل على حبه لتلك الأماكن وشعوره الصادق نحوها فقد كانت حجته الأولى فى سنة ٧٢٦ هـ حينما خرج من بلده طنجة مارا بساحل أفريقيا الشمالى ثم الاسكندرية ولكنه لم يتمكن فعاد أدراجه ، الى أن وصل بلاد الشام ، ثم غادرها فى شهر شوال سنة ٧٢٦ هـ مع الركب الحجازى المتجه الى مكة ، وزار

---

(٢٠) راجع رحلة ابن بطوطة ص ١٤ .

(٢١) راجع الرحلة المسلمون ، زكى محمد حسن ص ٢٥ .

المدينة المنورة ، وقد قال فى ذلك وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصرى يومئذ أرغون نائب الملك الناصر(٢٢) وبعد أن أدى ابن بطوطة حجته الأولى سنة ٧٢٦م غادر مكة أواخر شهر ذى الحجة ، متوجها الى العراق حيث تجول فى مدنها وبعض المدن فى ايران ، ثم عاد الى بغداد ومنها اتجه مع الركب العراقى لأداء فريضة الحج للمرة الثانية ، وكانت هذه الزيارة الثانية لمكة سنة ٧٢٧هـ حيث يقول : وأصابنى عند خروجنا من الكوفة اسهال ، فكانوا ينزلوننى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم الواحد ، والأمير يتفقدنى حالى ويوصى بى ، ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما ، وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى ، طواف القدوم ، وكنت ضعيفا بحيث أؤدى المكتوبة « الصلاة » قاعدا ، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس أمير الحج المذكور ووقفنا بعرفات تلك السنة يوم الاثنين ، لما نزلنا منى أخذت فى الراحة والاستعلال من مرضى (٢٣) ثم مكث ابن بطوطة مجاورا فى مكة للبيت الحرام من سنة ٧٢٨ هـ الى سنة ٧٣٠ هـ قائلا : ولما انقضى الحج ، يقصد حجته الثانية ، أقمت مجاورا بمكة تلك السنة حتى عافنى الله من مرضى فكنت أنعم بالعيش ، وتفرغت للعبادة والطواف والاعتمار (٢٤) وفى أثناء اقامتى بمكة ، أديت الفريضة للمرة الثالثة ، حيث قال : وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من سنة ثمان وعشرين (٢٥) ولما انقضى الحج للمرة الثالثة أقمت بمكة حرسها الله (٢٤) كما حج ابن بطوطة للمرة الرابعة سنة ٧٢٩ هـ (٢٦) ، حينما قال : ووقفتنا تلك السنة

---

(٢٢) راجع رحلة ابن بطوطة ص ١٧٠ .
(٢٣) نفس المرجع ص ٢٤٠ .
(٢٤) راجع رحلة ابن بطوطة ص ٢٤٠ .
(٢٥) راجع نفس المرجع ص ٢٤١ .
(٢٦) نفس المرجع السابق ص ٢٤٢ .

يوم الثلاثاء لسنة ٧٢٩ هـ، ولما انقضى الحج أقمت بمكة مجاورا حرسها الله ، وفى سنة ٧٣٠ هـ (٢٧) وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أمير جند الناصرى ، ولم يشر ابن بطوطة الى حجته فى سنة ٧٣٠ هـ ، وفى تلك الأيام خرج ابن بطوطة من مكةقاصدا بلاد اليمن ، وعاد مرة أخرى الى أفريقيا ، التى غادرهـا الى الخليج العربى مارا بعمـان وهرمز والبحرين ، ثم الى مدينـة القطيف والحسا واليمـامة ، ومن اليمامة اتجه ابن بطوطة الى مكة مرة أخرى وذلك فى سنة ٧٣٢هـ لأداء فريضة الحج للمرة الخامسة حيث قال : ثم سافرت منها يرسم الحج وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين فوصلت الى مكة شرفها الله تعالى ، وحج فى تلك السنة الناصر سلطان مصر رحمه الله ، وجملة من أمرائه ، وهى آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشريفين والمجاورين(٢٨) .

ثم أدى فريضة الحج للمرة السادسة بعد رحلته الكبرى الى آسيا الصغرى وبلاد الهند والصين ، وجنوب شرقى آسيا وذلك فى سـنة ٧٤٩هـ عن طريق عيذاب على البحر الأحمر .

حيث يقول : ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصـعود ، الى عيذاب وركبت منها البحر ، فوصلت الى جدة ، ثم سافرت منها الى مكة شرفها الله تعالى وكرمها ، فوصلتها فى الثانى والعشرين لشعبـان سنة تسع وأربعين ، فصمت شهر رمضان بمكة المكرمة ، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعى ، وحججت فى تلك السنة ثم سافرت مع الركب الشامى الى طيبة مدينة الرسول الكريم (٢٩) وهذه هى الحجة الأخيرة لابن بطوطة .

---

(٢٧) نفس المرجع السابق ص ٢٤٣ .
(٢٨) نفس المرجع ص ٢٨٠ .
(٢٩) راجع رحلة ابن بطوطة ص ١٥٤ .

وصف ابن بطوطة للمسجد الحرام بمكة :

وأود أن أسجل هنا أن الهدف من بسط وصف ابن بطوطة للمسجد الحرام فى هذا البحث هو بمثابة دليل على دقة منهجه فى مشاهداته وما قيل عن ذلك الرحالة المسلم فما هو الا من باب التحامل عليه والنيل منه .

قال ابن بطوطة : والمسجد الحرام فى وسط البلد ، وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع ، حكى ذلك الأزرقى وعرضه يقرب من ذلك ، والكعبة فى وسطه ومنظره بديع ، ومرآه جميل ، لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ، ولا يحيط الواصف بحسن كماله ، وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها ، وقد انتظمت بلاطاته انتظاما عجيبا ، كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ما عدا الحصية التى فى دار الندوة المزيدة فى الحرم ، وهى داخلة فى البلاط الأخذ فى الشمال ، ويقابلها المقام مع الركن العراقى وفضائها متصل يدخل من هذا البلاط اليه،ويتصل بجدر هذا البلاط مساطب تحت قسمى حنايا ، يجلس بها المقرئون والناسجون والخياطون ، وفى جدار البلاط الذى يقابله مساطب تماثلها ، وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب دون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط العربى فيه سوار جصية ، وللخليفة المهدى محمد من الخليفة أبى جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة فى توسيع المسجد الحرام واحكام بنائه ، وفى أعلى جدار البلاط العربى مكتوب ، أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام بيت الله وعمارته فى سنة سبع وستين ومائة (٣٠) .

---

(٣٠) رحلة ابن بطوطة ص ١٣٢ .

وقدم لنا ابن بطوطة دليل آخر على دقة وصفه حيث ذكر الكعبة المشرفة ، فقال : والكعبة ماثلة فى وسط المسجد وهى بنية مربعة ، ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ، وفى الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا ، وعرض صفحتها التى فى الركن العراقى الى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى الى الركن الشامى وعرض صحتها التى فى الركن العراقى الى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى الى الركن العراقى ، أما خارج الحجر ، فانه مائة وعشرون شبرا ، والطواف انما هو خارج الحجر ، وبناؤها بالحجارة الصم السمر ، قد ألصقت بأبدع الالصاق وأحكمه وأشده ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان ، وباب الكعبة المعظمة فى الصفح الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار ، وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم ، حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر •

وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشياء ، وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنع ، وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليها قفل ، ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، ورسمهم فى فتحة أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها،ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة،فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشيبين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة ، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع ، خلال ما يفتح رئيسهم الباب •

فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ، ودخل البيت وحده وسد الباب ، وأقام قدر ما يركع ركعتين ، ثم يدخل سائر الشيبيين ويسوون الباب أيضا ، ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفى أثنـــاء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضـــارعة وأيد مبسوطة الى الله فاذا فتح الباب كبروا ونادوا .. اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحـــم الراحمين ، وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر خطا ، وهى متوسطة فى الفضاء ، داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود ، مكتوب فيها بالأبيض وهى تتلالأ لديها نورا واشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى الى الأرض ، ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذى خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا أو نهارا ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف ، ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطـــيران ، وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله ، فاذا حازى الكعبة الشريفة ، عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلوها ، ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض ، فاما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه ، فسبحان الله الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم(٣١) .

وفى مبنى الكعبة المشرفة يوجد ميزاب ، والهدف منه تصفية المياه التى تسقط على ظهر الكعبة ، وفى ذلك يقول ابن بطوطة : « والميزاب

---

(٣١) راجع الرحلة ص ١٣٤ .

فى أعلى الصفح الذى على الحجر ، وهو الذهب وسعته شبرا واحدا وهو بارز بمقدار ذراعين ، والموضع الذى تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء ، وتحت الميزاب فى الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر،وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر عليها السلام ، وعلاقته رخامة خضراء مستديرة سعتها مدار شبر ونصف ، وبين القبرين سبعة أشبار » (٣٢) ثم يضيف ابن بطوطة الحجر الأسود فيقول : « وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار ، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه ، وهو ملصق فى الركن الذى الى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن ، وفيه أربع قطع ملصقة أو يقال ان القرمطى لعنه الله كسره ، وقيل : ان الذى كسره سواه ، ضربه بدبوس فكسره ، وتبادر الناس الى قتله ، وقتل بسببه جماعة من المغاربة ، وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة ، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم ، فتنجلى منه العيون حسنا باهرا ، ولتقبيله لذة ينعم بها الفم ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه ، لخاصية مودعة فيه وعناية ربانية به ، وكفى قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يمين الله فى أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق اليه وفى القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمة نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية وترى الناس اذا طاقوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ، ومن عند الحجر الأسود ابتداء

---

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ١٣٥ .

الطواف ، وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى فى طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقى وهى الى جهة الشمال ، ثم يلقى الركن الشامى وهو الى جهة الغرب ، ثم يلقى الركن اليمانى وهو الى جهة الجنوب ، ثم يعود الى الحجر الأسود وهو الى جهة الشرق •

ويذكر ابن بطوطة وصف آخر للمقام الكريم فى المسجد الحرام فيقول : « أعلم أن بين باب الكعبة شرفها الله ، وبين الركن العراقى موضعا طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك • وارتفاعه نحو شبرين ، وهو موضع المقام فى مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبى صلى الله عليه وسلم ، الى الموضع الذى هو الآن مصلى ، وبعد ذلك الموضع شبه الحوض ، واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل ، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه •

وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقى والباب الكريم وهو الى الباب أميل ، وعليه قبة تحتها شباك جديد منجاف عن المقام الكريم ، قدر ما تصل أصابع الانسان اذا دخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق ، والشباك مقفل ، ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتى الطواف ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وركع خلفه ركعتين ، وخلف المقام مصلى أمام الشافعية فى الحطيم الذى هناك(٣٣) ثم يصف ابن بطوطة الحجر والطواف حول الكعبة المشرفة فيقول : ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة،وهى أربعة وتسعين شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق ، وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر ، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط

---

(٣٣) راجع رحلة ابن بطوطة ص ١٣٦ •

واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصـــنعة البديع الاتقان ، وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب ، وبين ما يقابله من جـــدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا ، وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقى ، وسعته ستة أذرع وهذا الموضوع هو الـــذى تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح ، والمدخل الآخر عند الركن الشامى ، وسعته أيضا ستة أذرع ، وبين المدلخين ثمانية وأربعون شبرا .

وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود المحكمة الالتصـــاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم ، فانها امتدت اليه حتى أحاطت به ، وسائر الحرم مع البلاطات مفروشة برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجاز المفروشة .

ويصف ابن بطوطة أيضا زمزم فى الكعبة المشرفة ، فيقول : وفيه بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، وبينهما أربع وعشرون خطوة ، والمقام الكريم عن يمين القبة ، ومن ركنها اليه عشر خطا ، وداخل القبة مفروش الرخام الأبيض ، وتفور البئر المباركة فى وسط القبة ، مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة،وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ وتفور بالرصاص ، ودوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، وعمق البئر احدى عشرة قامة ، وهم يذكرون أن ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة ، وباب القبة الى جهة الشرق ، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك ، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء .

ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضى الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قلال يسمونها الدوارق،وكل دورق له مقبض،وتترك بها ليبرد فيها الماء،فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة ، والكتب التى للحرم الشريف ، وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع به مصحف كريم بخط زيد بن

ثابت رضى الله عنه ، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم تسليما ، وأهل مكة ، اذا أصابهم قحط أو شدة ، أخرجوا هذا المصحف الكريم،وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه فى مقام ابراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقـام الكريم ، فلا ينفصلون الا ، وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلى قبة العباس رضى الله تعالى عنه ، على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية (٣٤) .

ومن خلال هذا الوصف يتضح لنا أن ابن بطوطة دقيق الملاحظة صادق القول ، لم نلحظ عليه هوى أو كذبا أو خيـالا ، حيث كان من المجاورين للبيت الحرام بمكة .

٤ ــ شوقه الى المعرفة والرؤية والمشاهدة

اهتم ابن بطوطة فى رحلته بتدوين مادة علمية ، لا تجد لها نظيرا فى مدونات التاريخ المألوفة،حيث قدم لنا كثيرا من طبائع البشر وغرائب البلدان ، فقد قال عن مصر وهو يصفها « ثم وصلت الى مدينة مصر أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ذات الأقاليم العريضة المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الموارد والمصادر ، ومحط الضعيف والقادر،تموج موج البحر بسكنها،وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وأمكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم وتمكنت ملوكها نواحى العرب والعجم (٣٥) .

---

(٣٤) ولكن أزيلت هذه القباب فى فناء الحرم الشريف ولم يبق منها شىء ، توسعة على ضيوف الرحمن داخل الحرم المكى .
وراجع رحلة ابن بطوطة ص ١٣٧ .
(٣٥) راجع رحلة ابن بطوطة ص ٣٥ .

ثم قدم لنا ابن بطوطة مـادة علمية اشـتملت على جوانب سياسـية واجتماعية واقتصادية لبلاد الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، وقد وفق ابن بطوطة فى تقديم مادة علمية عن معالم وخصائص وعجائب هذه الأقاليم التى رحل اليها واسـتقر فيها وان كان قد تعـرض للشك فى مشـاهداته من بعض الحـاقدين عليه مثل ابن خلدون ولكن جـاءت مشاهداته رؤية اجتماعية صادقة •

٥ بـ وحدة العالم الاسلامى فى رحلة ابن بطوطة

قدم لنا ابن بطوطة معلومات عن أقاليم العالم الاسلامى وهـذا يدل على حرية التنقل والترحال ، فارتحل المشارقة الى المغرب والمغاربة الى الشرق ، ود غلب المغاربة المرتحلين لاستيفائهم لتجـارة والعلم ، وحرصهم على أداء فريضة الحج والحجاز قلب المشرق العربى، وكثيرا ما عرج هؤلاء المغاربة فى تشريقهم على البلدان الاسلامية العريقة التى اجتذبتهم بما لها من ارتباط بالتاريخ الاسلامى وأحداثه وتطوره مثل الشام مصر والعـراق واليمن ، وقد كانت التشـكيلات الجماعية لهذه الرحلات مهونة لمشقاتها على الاطمئنان فيها ، كما كانوا يصادفون على امتداد طريقهم للتجارة والحج ، أماكن للايواء والراحة ، داخل المدن وخارجها (٣٦) •

ونلحظ أن ابن بطوطة : يصف لنا فى رحلته العناية بابن السبيل ، وكان أهل الدين والخير من المسلمين ، ما بين رجال دولة وغير رجال دولة يقدمون الأموال الى هذه الزوايا ويوقفون عليها الأوقاف الواسعة بواجب الاكرام والايواء لابن السبيل(٣٧) ، وخلاصة القـول أن ابن بطوطة قدم لتراثنا العربى سجلا حافلا بالوصف والتاريخ والحضارة فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء •

---

(٣٦) نفس المرجع السابق ص ٥٦٠ •

(٣٧) راجع رحلة ابن بطوطة فى عالم المرأة د• سعيد عاشورص٧٢

(٣٨) راجع ابن بطوطة وخالة الاسلام د• حسين مؤنس ص ٩٩•